الغزو المريني لقسنطينة
من خلال رحلة ابن الحاج النميري

✍ ~~~~~~~~~~ أ.د بلعربي خالد*§

مقدمة: لا أحد يجادل في أن كتب الرحلات أصبحت اليوم من أهم المظان التي يعول عليها الباحثون في رصد المادة التاريخية والحضارية، لما تحويه من معلومات سياسية، واقتصادية واجتماعية، وثقافية قل نظيرها في المصادر التاريخية التقليدية، ولعل كتاب "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب" لابن الحاج النميري (713-774ه/1313-1373م) واحد منها، حيث يعد كتابه من أهم المصادر في فن الرحلة، قدم فيه ابن الحاج وصفا دقيقا للمدن التي زارها ومنها مدينة قسنطينة التي هي موضوع بحثنا.

لا يخفى على الباحث أن قسنطينة شكلت خانة بارزة في خارطة تاريخ المغرب الأوسط خاصة، وتاريخ المغرب الإسلامي عامة، في الفترة الوسيطية، وعلى الرغم، من ذلك فإنها لم تنل حظها الكافي من البحث والاستقصاء قديما وحديثا فالمؤرخون القدامى أسدلوا عليها ستارا من الصمت والكتمان، ويعزى ذلك لعدم اكتراثهم بتاريخ المدن. أما المؤرخون المعاصرون فقد عزفوا عن دراستها بسبب الفراغ المهول في النصوص التي تتضمنها هذه المصادر نفسها. نستثني من ذلك الدراسة التي قام بها الدكتور عبد العزيز فيلالي والموسومة بـــ"مدينة قسنطينة في العصر الوسيط"[1]. ماعدا ذلك فلا نجد لهذه المدينة ذكر في الدراسات التاريخية الحديثة وهو ما يشكل ثغرة عميقة في تاريخ المغرب الأوسط، وبقعة من بقع التاريخ المهمل.

من صلب هذه الإشكالية، يبرز لنا الدور الذي تنهض به كتب الرحلات لتذليل مختلف العقبات المعرقلة للكتابة التاريخية، فإلى جانب كونها حجر الزاوية في أي بحث تاريخي، فإنها تسعى أيضا إلى تزويدنا بالكثير من المعلومات عن المدن التي زارها هؤلاء الرحالة، مما يؤكد أهميتها المتعاظمة كأداة مرجعية في حقل التاريخ، ذلك أن النبش في مصنفات الرحلات، والحفر عميق فيها، يشكل قناة نحو تطوير الدراسات التاريخية.

في هذا المنحنى، تم اختيار نموذج من كتب الرحلات نعتقد أنه يحوي معلومات هامة عن مدينة قسنطينة، وهو كتاب "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب" لإبن الحاج النميري، والذي سنحاول من خلاله دراسة ما جاء به عند حديثه للغزو المريني لقسنطينة.

ولكن قبل التعرض لموضوع الدراسة، نرى من المفيد التعريف بالكتاب وبمؤلفه في عجالة، لما لذلك من أهمية في اختبار المعلومات التي يوردها حول هذه المدينة.

*أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر – شعبة التاريخ– كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة جيلالي ليابس– سيدي بلعباس.

تنتمي رحلة "فيض العباب" إلى الرحلات الأمنية الداخلية باعتبارها أنجزت فيما بين سنتي 758 ه/759ه داخل الدولة المرينية في عز قوتها، حين أصبحت بلاد المغارب تحت نفوذها وسيطرتها، أما بواعثها فقد حددها الحاج النميري قائلا: "كان السلطان قد بعث الشيخ أبا عمران إلى ميلة وبجاية لإخماد الفتن في هذه الأوطان، وانتصر في بجاية فستأذن (الشيخ) أبا عنان في الرجوع إلى هذه الأماكن للأخذ الثأر"[2]، وصادف أن كان السلطان منشغلا بمحاربة الإسبان والبرتغال وغيرهم. فلما استتب له الأمن على السواحل قال: "إن حركتنا السعيدة في هذا العام إلى قسنطينة التي أظهرت إباء وجاهرت بالعناد اجتراءا واجتراءا..."[3]، وأما السبب المباشر لهذه الرحلة فقد ذكرها النميري قائلا: "إن هذه الحركة السعيدة إنما أفردت لأخذ قسنطينة، وتمهيد أوطانها، وجعل ذلك شأوا لا تتجاوزه حلبة ميدانها"[4]. أما مخطط الرحلة ومنفذها فهو السلطان أبو عنان (729ه/759ه) وكاتبها ابن الحاج النميري الذي كان سر السلطان.

انطلقت الرحلة من فاس سنة 758ه[5]، حتى الوصول إلى قسنطينة[6]، وقد مرت هذه الحركة بتازا، المدية، ثم بني يمل، فبجاية، فبلاد السدويكش، وصولا إلى قسنطينة، وذلك بعد ثلاثة أشهر من خروج السلطان من فاس[7].

بعد الوصول إلى قسنطينة تمت محاصرتها حتى الفتح، ثم اتخاذها عاصمة لإعادة النظام وإرسال الجيوش لتأديب المتمردين. ثم التوجه نحو الزاب، مستعيدة أدراجها إلى قسنطينة ومنها إلى مدينة فاس.

أما المؤلف ابن الحاج النميري، فإن أحسن من عرف به هو لسان الدين بن الخطيب مشيرا إلى أنه: "نشأ على عفاف وطهارة... وبلغ الغاية في إجادة الخط، وحاضر بالأبيات، وارسم في كتابة الإنشاء عام وأربعة وثلاثين وسبعمائة، مستحقا حسن صحة، وبراءة خط، وجودة أدب...[8]

ولد ابن الحاج النميري سنة 713ه/1313م، ويعرف أيضا بابن الحاج الغرناطي، نسبة إلى مسقط رأسه غرناطة، وقد عرف المؤلف بعلو كعبه في ميدان الكتابة، إذ أصبح في زمانه من الكتاب المشهورين في المغرب والأندلس.

وما يؤكد المكانة العلمية التي تبوأها ابن الحاج، إجماع كتب التراجم على ذلك. فقد وصفه لسان الدين بن الخطيب في الكتيبة الثامنة: "كان نار على علم، وبدر في ظلم... أحيا من آثار السلف ما سلف، ووجبت عليه اليمين أنه الذخر الثمين فحلف، من لسان ثرثار وبحر نظام ونثار، وجواد يقتحم كل نقع مثار، غير مبال بعثار، إلى خط وشارة، وإفصاح وشارة، وأبهة تقيد الطرف، وتستبعد الظرف، وتستتبع الشذا والعرف، رحل والشباب ضافي الأذيال... وطلع على جهته المغربية طلوع الصباح السافر..."[9]

أما تاريخ وفاته فقد حددها ابن ثغرى بردي بسنة 765ه/1363م[10]، غير أن الزركلي يراها سنة 768ه/1368م[11] بيد أن الدكتور محمد بن شقرون محقق الرحلة فيحددها بعد سنة 774ه /1373م[12]. والراجح أن وفاته كانت سنة بعد سنة 774ه /1373م، على إعتبار أن ابن الحاج النميري يطالعنا في كتابه

"مزاين القصر" على نص مهم يؤكد على أنه كان على قيد الحياة سنة 776ه/1375م، فقد مدح السلطان الغني بالله بمناسبة افتتاح حضرة فاس للمرة الأولى سنة 776ه/1375م[13].

أما ابن مرزوق الخطيب، فقد كشف عن طول باعه العلمي من خلال ماذكره عنه واصفا إياه "بالفقيه الإمام الرحالة النخبة الصدر المحدث الرواية العلامة...عالم وقته وحافظ عصره..."[14]

إن الشهادات الآنفة الذكر تنهض قرينة على مكانة ابن الحاج النميري المتألقة في ميدان الكتابة، أما منهجيته في الكتابة فقد أظهر فيها مهارة فائقة، وتميز أسلوبه الكتابي بسجع التزمه في نقل أخباره وتحليله المواقف،كما تتميز منهجيته بالدقة والضبط.

إن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان ونحن نتحدث عن الغزو المريني لقسنطينة في رحلة النميري، كيف كتب النميري عن هذا الغزو؟ في الحقيقة سنحاول في هذا البحث الإجابة عن هذا السؤال بعد التعرض للأحوال السياسية التي كانت تعيشها بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري.

1- الأحوال السياسية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري(14م):

لقد كانت بلاد المغرب خلال هذه الفترة- ونعني بذلك القرن 8هـ/14م- تعيش أوضاعا سياسية متميزة؛ فالعلاقة بين حكام بني مرين في المغرب الأقصى وأمراء بني عبد الواد في المغرب الأوسط وسلاطين بني حفص في إفريقية كانت متوترة ومضطربة، وكل واحدة من هذه الدول كانت عدوة لجارتها المباشرة، حليفة للتي بعدها، مما جعلها تعيش في حروب لا تقف ولا تهدأ، وفي حالة من الفوضى وعدم الاستقرار وما نجم عن ذلك من تدهور. ومن مظاهر ذلك الصراع الذي كان قائما بين تلك الدول، الغزو المريني للمغرب الأوسط في منتصف القرن 8هـ/14م. فالسلطان المريني أبا عنان فارس لما تقلد العرش بعد خلع وموت والده أبي الحسن سنة 752هـ1351م اعتزم إعادة الملحمة التي حققها أسلافه من قبل والمتمثلة في توحيد كامل بلاد المغرب الإسلامي[15]. فانطلقت الحملة العسكرية من فاس في فاتح سنة 753هـ/1352م، ولم تستطع جيوش بني عبد الواد التصدي لها، فتمكن أبو عنان من دخول العاصمة تلمسان منتصرا وقتل سلطانها أبا سعيد عثمان، وبذلك زال سلطان بني زيان على يد السلطان أبي عنان المريني، الذي اتخذ من مدينة تلمسان مقرا له[16]. والظاهر أن طموحات أبي عنان كانت كبيرة، وربما تتعدى إمكاناته المادية والعسكرية، ولهذا نراه يواصل الحملة بعد ذلك نحو بجاية حيث أقبل عليه حاكمها الأمير أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي، وهنأه بانتصاراته وسلم له المدينة دون مقاومة تذكر؛ ففرغ بذلك السلطان المريني من شأن المغرب الأوسط، ثم انكفأ راجعا إلى تلمسان لشهود عيد الفطر بها، ودخلها في آخر رمضان سنة 753هـ. ليتوجه بعد ذلك نحو قسنطينة التي حاصرها عدة أشهر قبل أن يتمكن من دخولها في 12 شعبان من سنة 758ه[17].

بعد ذلك توجه أبو عنان نحو تونس، قاعدة بني حفص، حيث تمكن من دخولها محققا بذلك ما كان يصبو إليه وهو بسط نفوذه على كامل ربوع المغرب الإسلامي، من المحيط الأطلسي غربا إلى أطراف المغرب الأدنى الشرقية، وتم له ذلك سنة 758ه/1357م[18].

غير أن هذه الانتصارات التي حققها أبو عنان في المغربين الأوسط والأدنى لم ينعم بها كثيرا؛ فقد عجلت به الأوضاع التي كانت سائدة في المغرب الأقصى- والمتمثلة في قيام ثورات ضده- أن يعود إلى فاس للقضاء عليها، ليفشل مشروع أبي عنان والمتمثل في توحيد المغرب الإسلامي، ووراثة عرش الموحدين، كما فشل مشروع والده أبي الحسن[19].

ساعدت هذه الظروف أبو حمو موسى الزياني الذي كان مقيما عند بني حفص على استرجاع العرش الزياني المغتصب من قبل بني مرين، وبالتالي إحياء مجد الدولة الزيانية المنهار، وهو ما كان له ذلك حين تمكن من دخول تلمسان في ربيع الأول من سنة 760ه/1359م، وذلك بعد أن طرد منها ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميرا عليها خلفا لأبيه.

وقد اضطر السلطان الزياني خلال هذه الفترة أن يواجه المرينيين في أكثر من مناسبة، حيث أن المرنيين لم يتوقفوا عن غزو تلمسان عدة مرات، وقد وقف لهم السلطان أبو حمو بالمرصاد، وقد حضر المؤرخ يحي بن خلدون كثيرا من المعارك التي خاضها أبو حمو موسى الثاني ضد المرينيين، ووصفها وصفا دقيقا في بغيته وهو صراع شديد انتصر فيه أبو حمو موسى الثاني حينا، وانهزم أحيانا[20].

وبالتالي يمكن القول أن أوضاع بلاد المغرب الإسلامي، من الناحية السياسية، كانت مضطربة، نتيجة للصراعات السياسية في المنطقة، والتدخلات المتكررة في بلاد المغرب الأوسط من قبل الدولتين المجاورتين له: الحفصية في الشرق والمرينية في الغرب، والتي انجر عنه ظهور اضطرابات وانعدام الأمن والاستقرار في ربوع المغرب الأوسط.

2- الاستعداد المريني لغزو قسنطينة في رحلة النميري: يتحدث ابن الحاج النميري إلى أن السلطان أبي عنان المريني شرع في الاستعداد لغزو قسنطينة في 20 جمادى الأولى من سنة 758ه[21]، بعد سنة كان قد قضاها في تسوية الأمور الداخلية والخارجية لبلده، بعد ذلك يذكر النميري أن السلطان حشد لهذا الغرض عددا هائلا من الجيوش والمتطوعة، وكانت مدينة تازة ملتقى هذه الجيوش "وأمر مولانا بإقبال الجيوش والعساكر، وجمع الكتائب التي ترى الأكم... وجهزهم بما يحتاجون إليه من الخيل...

وأصدر أيده الله الأوامر الكريمة بحشد القبائل، وحشر الرامح والنابل، واستقدام العالي والسافل... واستنهض أبطالا تسرع خيولهم كالنعام الجوافل..."[22].

بعد ذلك يخبرنا النميري بتوجه الجيش المريني نحو المغرب الأوسط حيث دخل المدية، ثم بجاية، إلى أن وصل مشارف مدينة قسنطينة. فما هي الدواعي والأسباب التي حركت المرنيين لغزو قسنطينة؟.

يخبرنا النميري بأن سبب الغزو يعود إلى محاولة السلطان أبي عنان المريني إخضاع الأعراب لسلطته، والقضاء على عصيانهم وفسادهم، وردع الخارجين عن الطاعة، وعقاب المثيرين للقلاقل والفتن في قسنطينة ويظهر ذلك في قوله: "وسوف نجعلها إن شاء الله للآمنة قرارا، ولجميل الإدارات درا، ونأخذ من عربها الذي ثار بغيهم ثأرا"[23].

لكن المتمعن في السياسة التوسعية للسلطان المريني إنما كان الهدف الأول منها هو ضم قسنطينة إلى ملكه بدليل أنه لما تحقق هدفه هذا لم يفكر في اجتياح المناطق الأخرى، التي كانت خارجة عن طاعته، وهو يعترف بذلك حين يصرح بأن حركته السعيدة إنما "أفردت لأخذ قسنطينة وتمهيد أوطانها، وجعل ذلك شأوا لا تتجاوزه حلبة ميدانها"[24].

ويذكر النميري بأن ذلك يدخل في مسؤوليات أبي عنان والتزاماته تجاه المسلمين، والعقيدة الإسلامية. فالهدف الرئيسي من الغزو ليس العمل على استتباب الأمن في المناطق التي يشملها نفوذ السلطة المرينية، وإنما الهدف الأول هو قسنطينة وإخضاعها كلها لحكمه. إذ كان له طموح كبير في توسيع دائرة حكمه ومجال نفوذه، فقد كان متشوقا للسيطرة على قسنطينة وضمها لملكه. وهو ما عبر عنه بقوله: "بلدة لم ترض غير السحاب بردا، ولا طلبت لأجياد شرفاتها غير النجوم الزهر عقدا... قسنطينة وما أدراك ما قسنطينة، مرقى يقف دونه النجم الطائر، ومأمن يلتقي على مركز مرافقه الماضي والحاضر"[25].

3- حصار قسنطينة: عندما استعصى الأمر في البداية على الجيش المريني دخوله قسنطينة قام بفرض حصار عليها، يصف النميري ذلك بقوله: "واهتدى في المحاصرة بأمور لم تكن لأهل قسنطينة في حساب...وأمر بالاستكثار من آلات الحصار، وجعلها قلائص تحمل في ظهورها المنايا، وترغو رغاء سغب ثمود في الغدوات والعشايا..."[26].

ثم يعرج النميري بعد ذلك لوصف صمود المدينة في وجه الغزاة الطامعين، وما تحلى به أبناؤها من شجاعة واستبسال في صد هؤلاء الغزاة حتى لو أنهم قد تمكنوا من دخولها فيما بعد، وطرد المناوئين فيها، فهو يقول: "إن أهلها لم يزالوا مصرين على المكافحة... واصلين مقاداتهم في العناد بالمراوحة"[27]، وفي موضع أخر يقول: "ولم يزل أهل قسنطينة على جديلة من أمرهم مصرين على العناد (عدم الاستسلام للسلطان) حتى أحفظوا الخليفة أعظم احفاظ، وأيقظوا عيون العزائم وأجفان الصرائم أي إيقاظ..."[28].

ثم يصف لنا ابن الحاج النميري تحضيرات الجيش المريني لاقتحام قسنطينة التي استعصت عليه قائلا: "فلما نكص الليل على عقبيه وتقهقر، ومسح الصبح الأفق بيديه فأقبل بهما وأدبر، ركبت الجيوش التي أصبحت كل منها نشيطا طيب النفس، وامتطوا ظهور الجياد وكل منهم مأنوس الظهور ظاهر الأنس... ووقفت الساقة أمام المخيم الشريف رافعة أعلامها، ناصبة طبولها، خافضة كلامها، واصطفت الصفوف، وتنكر المنكر وتعرف المعروف... ورفعت كل جماعة علمها الذي يهتدى بمناره... وأخذت الجيوش في

صعود العقبة التي تفضي إلى مسور قسنطينة وتستدني أماكنها المكينة، فلا ترى إلا كتيبة جاءت تتلو الأخرى، وجحافل تنثال على آثار جحافل تترى، وعسكرا يعقب عسكرا"[29].

ويحرص النميري على التأكيد أثناء الحصار مخاطبا جيوشه قائلا: "وقد علمتم ما كان من إقامتنا بظاهر قسنطينة حرسها لتمهيد أوطانها التي نجمت بها الفتن وتسكين رعاياها التي طالما فجعتها المحن..."[30]، وقد تضرر سكان قسنطينة من هذا الحصار الغاشم الذي فرض عليهم من قبل الجيش المريني، الذي حرم أهلها من ماء الوادي بعدما غير مجراه حتى يموت القسنطينيون عطشا، وقد أكد مؤرخ قسنطينة الحاج أحمد بن المبارك في ذكره من غزا قسنطينة قائلا: "وأما من غزاها ووصل خبره إلينا، فقد غزاها أبو عنان المريني من بونة، وحاصرها بجنود كثيرة وقوة عظيمة، وقطع عنها النهر وجعل الماء يمشي إلى ناحية أخرى، وحلف لا يرحل حتى يدخلها ويجعل عاليها أسفلها"[31].

4- الدخول إلى قسنطينة: يخبرنا النميري بأن المرنيين تمكنوا من دخول قسنطينة بعد ثلاثة أشهر من خروجهم من فاس بقيادة أبي عنان، وحتى وإن لم يشر إلى تاريخ الدخول، إلا أن ابن قنفد يحدده ب12 شعبان 758ه[32]، ثم يذكر النميري أن الدخول لم يكن سهلا على المرنيين، إذ أظهر أبناؤها صمودا وشجاعة في وجه الغزاة الطامعين حتى ولو أنهم عجزوا في النهاية الدفاع عن مدينتهم، "ولم يكن إلتا أن تمكن من نقب باب القنطرة، وصبر من كان معه المرامي عليهم من القناطر المقنطرة، حتى كاد أن يدخل البلد عنوة، ويمتطي له ذروة، ويفصم عروة، لكنه أضاع الحزم، وقصر في الاستيلاء عليها الكرم. وأخر الله فتحها إلى أجله المعدود، ويومه المشهود، وذخره لجمال الموجود، والإمام الذي برز في ميدان البأس والجود"[33].

ثم يحاول النميري أن يصور لنا قوة الجيش المريني عند الغزو، وعدم قدرة أهالي قسنطينة عن مواجهة الغزاة الطامعين، وذلك لماشاهدوه من قوة أبي عنان عددا وعدة، خاصة بعدما استعرض جيوشه بالفحص الأبيض بقسنطينة قائلا: "ولما شاهد أهل قسنطينة ما شاهدوه من عظمة الملا ما شاهدوه، واجتازت عليهم العساكر التي رددوا ذكرها وعاودوه، بهتوا وحاروا، واثاروا من حزنهم ما أثاروا، وشملهم الندم، حين زلت بهم القدم..."[34].

لكن الملاحظ في هذا الوصف أن هناك مبالغة في تعظيم الجيش المريني من قبل النميري، خاصة وأننا نعلم بأن هذا الجيش لم يتمكن من اقتحام أسوار قسنطينة إلا بعد تسعة أشهر، لذا فالباحث لا بد له أن يتحفظ من ذلك.

ثم يعرج ابن النميري لذكر ما وقع بعد دخول المرنيين قسنطينة إذ يخبرنا باستسلام الأمير الحفصي أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي يحي الذي كان واليا على قسنطينة الذي اعترف بالسيادة المرينية عليها طالبا الصفح عما بدر منه، "ولما رأى أحمد بن محمد بن أبي يحي ما نزل بساحته من أصحاب الحق والهدى،

وعلم أنه طعمة في لهوات الردى، وحصل في أنشوطة الهلكة، وعدم بعناده لطائف الخير والبركة، ولم يبق إلا أن تبث السيوف حبل وريده، وتردد المنيا بيت قصيده، راجع بصيرته، وأصلح سريرته، ورد مورد الرشد عذب النطاف صفوا، وطلب العفو حين رأى خير الفتوح قد جاء عفوا"[35].

لكن السؤال المطروح هو هل استسلم القسنطينيون لحكم أبي عنان المريني؟ طبعا لا، إذ أن أهل قسنطينة رفضوا هذه السيطرة عليهم، كما رفضوا موقف الوالي الحفصي الذي اعترف بالسيادة المرينية، حيث ظلوا صامدين في وجه الغزاة الطامعين يطلق عليهم النميري بعناصر "الفتنة "الذين أعلنوا شق عصا الطاعة، ولكنهم في الحقيقة المدافعين عن مدينتهم وبلادهم، وحتى فقهاء قسنطينة رفضوا الاعتراف بالسلطة المرينية على مدينتهم ومن بينهم حسن بن خلف بن باديس وأخوه القاسم، يشير النميري إلى ذلك في قوله: "فكان مما وضح بعد العفاء، أن خطيبهم حسن بن خلف بن باديس الذي شهد فيه بعض الخواص أنه ولي من الأولياء، وشيعة لهذه الدولة المرينية والي الأناء، وخلعت عليه لأجل ذلك خلع التشريف والتكريم... ولم يزل (السلطان) يوليه عرفه وينشقه عرفه، كان من الأشقياء الذين خطب بالعصاء فشق العصاء، ولم يثنه على رمي الحجارة من السور برمي الحصاء"[36]، ويذكر النميري بعد ذلك أنه تم القضاء على هذه الفتنة سريعا.

5- قسنطينة بعد الغزو المريني: صارت قسنطية بعد دخول المرينيين إليها مقرا لحكم السلطان أبي عنان، منها تنطلق الجيوش وتصدر الأوامر وتبعث الرسائل والوفود، وتستقبل البعثات ووفود القبائل المبايعة، كما وقع اهتمام السلطان بها أن قام بتنظيمها وإصلاح أمورها، فرصد أموالا طائلة لإنعاش الحياة الاقتصادية بها التي وصفتها بعض المصادر المعاصرة بالتدهور والغلاء الشديد[37]، "ولما طهر قسنطينة... كان أول ما صنعه أيده الله أن عين مالا وافرا وافيا، ورفدا كافيا كافلا، وأمر أن يصدق جميعه على الضعفاء من أهل قسنطينة والمساكين... فتفرق ذلك المال على حسب الاختيار. ولم يبق هنالك من يشكو بالإقلال والإقتار[38]، كما أمر بإقامة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف على الطريقة المعهودة، ورتب في الجامع الأعظم بقسنطينة جملة من القراء وفرض مرتبات لشيوخ مساجدها[40].

وشرع أبو عنان بعد ذلك في تنظيم الجهاز الإداري بتعيين ولاة الأقاليم، وانتقاء العمال، وتعيين صاحب الصلاة يحض الناس على تأدية الصلوات في الجماعات، ويقيم شعائر الإسلام في الأوقات المطلوبة، فصلحت بذلك أمور الدين والدنيا معا[41].

6- معالم حضارية بقسنطينة في رحلة النميري: من معالم قسنطينة التي سجلها الرحالة النميري أثناء الغزو المريني لقسنطينة الجامع الأعظم وما كان له من دور في حياة سكان المدينة، فهو يذكر أنه "لما طهر الله طينة قسنطينة من الخبائث وكفاها عبث السيفين سيف الخليفة وسيف الحوادث، وصرف عنها وجوه الخطوب والكوارث... أمر أيده الله أن يرتب بجامعها الأعظم جملة من الفقراء... ويجري لهم مرتبات

صادقة الولاء على الولاء، وأن يكسى شيوخ مساجدها في كل عام، ويشفع لهم إحسانا بإحسان وإنعاما بإنعام، ويختن في كل عاشوراء أولاد الضعفاء ويكسون... وكان من كمال ذلكم العمل الصالح وتمام ذلكم السعي الناجح أن أمر باجتماع أهل قسنطينة بمسجدهم الجامع"[42].

كما ذكر ابن الحاج الزاوية والمدرسة وهذا يدل على الأقل بوجود حركة تعليمية بالمدينة، فهي "(أي قسنطينة) شامخة الأنف وهية العطف ملتعة الجيد، معورة الألقاب، ترنو بذي شوس وتتعاظم تعاظم ذي هوس"[43].

خاتمة: وخلاصة القول أن ابن الحاج النميري وصف لنا الغزو المريني لقسنطينة وصفا يبرز عنايته الشديدة بوصف الظروف والملابسات والقرائن والمؤشرات التي تجعل الحدث يتخد أبعادا واسعة مثيرة، تنقل القارئ من مستوى عالم المجردات إلى عالم المحسوسات، كما تنم رحلته التي دون فيها غزو أبي عنان لقسنطينة مدى عاطفته وولائه للملك المريني، الذي صوره بالبطل الذي دخل قسنطينة لإنقاذها من فتن الأعراب، وهو أمر مبالغ فيه إلى حد بعيد في الكتابة التاريخية.

الهوامش:

1- عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، دار البعث، قسنطينة..1984

2- ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون،ار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1990، ص170.---3- نفسه، ص160.---4- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، الرباط 1990، ج2، ص395.--- 5-ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص159.--- 6- نفسه، ص383.---7-نفسه، ص367.

8- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ج4، ص343.

9- لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت،1983، ص260.

10- ابن ثغرى بردي، المنهل الصافي والمستوفى في بعد الوافي، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1 1974، ص96.

11- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين بيروت، ط15، 2002، ج1ص49.---12- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص27.

13-ابن الحاج النميري، مزاين القصر ومحاسن العصر، مخطوطة المتحف البريطاني رقم 5670، ورقة28.--- 14-ابن مرزوق محمد، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر 2007، ص376.---15- ع. فيلالي، المرجع السابق ص52.

16-DHINA Attallah- les deux grands sièges de Tlemcen- E.N.A.L- Alger-1984- p74

17- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص52.--- 18-نفسه، ص52.

19- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، ج1، الجزائر 2007، ص235.

20- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، نشره وترجمه إلى العربية الفريد بل، مطبعة فنطانة، الجزائر، 1903-1910، ج2، ص112.--- 21- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ص404.--- 22-ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص238--- 23-نفسه، ص330.

24-نفسه، ص346.--- 25- نفسه، ص319.--- 26-نفسه، ص295.---27-نفسه، ص288.---- 28-نفسه، ص289 .

29-نفسه، ص ص303-304.--- 30- نفسه، ص373.--- 31-الحاج أحمد بن المبارك، تاريخ قسنطينة، دار البعث قسنطينة، 1977 ص59.

32-ابن قنفد القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر تونس، 1968 ص182.--- 33- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص289.--- 34-نفسه، ص308.--- 35-نفسه، ص310.

36- نفسه، ص329.--- 37-ابن قنفد، المصدر السابق، ص180.--- 38- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص331.

40- نفسه، ص332.-- 41- نفسه، ص ص333، 334.--- 42-نفسه، ص322.---- 43-نفسه، ص290

Abstract:

trying to this study addressed to an important issue in the history of Morocco East mediator for the invasion of Al Mrini to Constantine during the journey of Ibn al-Hadj Numeiri, and that a study preparations Marini School Resumes to achieve this goal, and then also the blockade imposed on the Constantine Marinids deficit after entering it, and after that, Numeiri address to enter Al Marini to Constantine blockade that hit them for nine months, was then decimated us in last to cultural landmarks that were present in the city during the invasion.